

الكاتب المصري



أغسطس ١٩٤٧

رمضان ١٣٦٦

مجلد ٦ - عدد ٢٣

السنة الثانية

تقدمة

هذه قصة من قصص فولتير التي عني فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التي شغلت الناس دائماً ، وشغلت الفرنسيين بنوع خاص أثناء القرن الثامن عشر ، وهي مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان وإرادته منهما . وما أريد أن أتعلم قضية القضاء والقدر في نفسها ، ولا أن أتعلمها بالقياس إلى الفلاسفة والمتقنين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعلمها بالقياس إلى فولتير نفسه . فنحن في فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هذا البحث الذي يكلف الكاتب والقارئ من العناء ما يحتاج إلى حياة راقية شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهني .

وأنا بعد ذلك لم أنكر في تقديم هذه القصة إلى القراء في هذا الفصل الشديد إلا لأربح الزملاء الذين يشاركون في تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يفضلون بقراءتها ، من تكليف أنفسهم عناء الجهد في الكتابة والجهد في القراءة أثناء فصل القيظ . والراحة حق للكتاب كما هي حق للقراء . ولكن الراحة ألوان وأشكال ، فهناك الراحة التي يستمتع بها الانسان حين لا يعمل شيئاً ، وهي راحة بغيضة لأنها عقيمة لا تنفع صاحبها ولا تنفع الناس . وهناك

الراحة التي يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل إلى ما يمتعه ويمتع
الناس دون أن يشق على نفسه وعليهم ، وهذه هي الراحة الخصبية التي يدل
لفظها على معناها دلالة صادقة ، والتي تعصم الانسان من الفراغ الفارغ
الجدب الذي يميمت القلوب ، وهي الراحة التي تلائم المثقفين من الكتاب
والقراء جميعاً . فالرجل المثقف لا ييغض شيئاً كما ييغض الفراغ الجدب
العقيم ، والراحة بالقياس إليه هي الانتقال من عمل مجهد مضمّن إلى عمل يجمع
بين التسلية والمتاع . وإلى هذه الراحة قصدت حين فكرت في أن أعفى محرري
هذه المجلة من إنشاء بحوثهم المضنية ، وقراءها من العكوف على تفهم هذه
البحوث ، وفي أن أعفى القراء في الوقت نفسه من الفراغ الذي كانوا قد
يضطرون إليه ساعات من نهار أو أياماً من شهر لو لم تقدم إليهم المجلة شيئاً ،
وفي أن أترجم لهم آية أدبية رائعة يحدون في قراءتها ما يرضى حاجتهم إلى التفكير ،
وحاجتهم إلى الراحة ، وحاجتهم إلى المتعة الأدبية الرفيعة في وقت واحد .
وأنا أحد الألوف أو الملايين من الناس — إن حسن ظننا بالناس — الذين
يعجبون بأدب فولتير ، وينتهي بهم الاعجاب إلى الفتنة في كثير من الأحيان ؛
لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب ، وإنما كتب له الخلود والشباب
جميعاً . أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الانسانية على
اختلاف العصور والبيئات والأجيال . ولن أفهم الدليل على شيء من ذلك ؛
فقد فرغ التاريخ الأدبي من إقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها ستدل
عليه في وضوح وجلاء وإقناع . وما أظن القراء يكلفونني أن أوثرهم بشيء
لا أوثر به نفسي ، أو أن أجتمل في سبيلهم من الجهد والمشقة مالا أحب أن
أحتمله في سبيل نفسي .

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشرين ، وأكبر الظن أني سأقروها
وأقروها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائماً متعة العقل والقلب والذوق . فإذا
قدمتها إلى القراء فقد آثرتهم بما أوثر به نفسي ، ولم يظلمك من سوى بينك
وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر ينتصف سنة
١٧٤٨ وتكلف فنوناً من الجهد والحيلة لطبعها خارج فرنسا ولينشرها في
فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها في فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وأني في

باريس مشغول بما يشغل به الانسان حين يلم بباريس ليقم فيها وقتاً قصيراً
وليرحل عنها بعد ذلك — لولا هذا لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته
في نشر هذه القصة ، ثم من جحوده إياها وتنصله منها مخافة أن تجر عليه شراً ، ما فيه
كثير من الفكاهة والتسلية . ولكنى أرجو أن أعود إلى هذا كله في وقت قريب .
وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيه ترجمة « ألف ليلة
وليلة » ، فشاقته وراقته ووجهته إلى دراسة أمور الشرق ، ففرق في هذه
الدراسة إلى أذنيه ، وأخرج للناس قصصاً شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه
القصة وأرجو أن يتاح لى أن أترجم لقراء العربية طائفة من قصصه الشرقية
الأخرى .

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير زديج ، ونسميه
نحن صادقاً . وقد كدت أضع صادقاً مكان زديج في القصة كلها ، ولكنى آثرت
أن أحتفظ لفولتير باسم بطله كما أراد هو أن يكون . وهذا الفتى البابلي المثقف
المتأثر قد اختلفت عليه الأحداث وتعرض لكثير من المحن في وطنه أولاً وفي
الأوطان التي تغرب فيها بعد ذلك ، في مصر وفي بلاد العرب وفي جزيرة
سرنديب وفي سوريا ، وكانت هذه الأحداث والمحن كلها مخالفة للمنطق الأشياء
وطبيعة الحياة كما يراها الناس ؛ فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائماً ، وكان
يستقبل ذلك بالحيرة والاذعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفئ آخر الأمر
بما يلائم ذكائه ووفاءه وثقافته وبراعته وصبره واحتماله ، فأصبح ملكاً على
الدولة البابلية العظمى .

ففي القصة إذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ،
أو كما خيل لفولتير أن الشرقيين يتصورونها . وفيها حل لهذه المشكلة على نحو
ما تصوره الفلاسفة منذ أقدم العصور ، وهو هذا الحل الذي لا يحل شيئاً ،
والذى يلخص في أن الانسان أقصر عقلاً وأكلّ ذهنًا من أن يفهم حكمة الخالق
الذى أبدع العالم ووضع له ما يدبره من القوانين . فما عليه إلا أن يكذب ويحد
ويعمل الخير ما وسعه أن يعمل الخير ، ويجنب الشر ما أتيح له أن يجتنب
الشر ، ولا عليه بعد ذلك أن تسره الأيام أو تسوءه ، وأن تسخطه الأحداث
أو ترضيه .

ولكن في القصة أشياء أخرى غير هذا العرض الفلسفى لمشكلة القضاء

والقدر ، هو الذى أتاح لها الخلود ، وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسية والاجتماعية والخلقية ، والنفوذ بهذا النقد إلى صميم الطبيعة الانسانية ، وما ينشأ عن احتمالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى نقد الحياة الأوربية عامة والحياة الفرنسية خاصة ؛ واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس ومن أجل هذا أشفق من نسبة هذه القصة إليه . ومن أجل هذا فتن الفرنسيون بهذه القصة في عصر فولتير ، ومازالوا يفتنون بها إلى الآن . ومن أجل هذا أعتقد أن قراء العربية سيجدون في قراءة هذه القصة ما يلائم حاجتهم إلى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع . فليقرأوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا ، وليستريحوا إلى القراءة والتفكير والتذكر ، ثم لينتفعوا بعد ذلك بما يقرءون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه صبيح

باريس ، يونيو ١٩٤٧